AL-SĪRAH AL-`ILMIYYAH LI AL-IMĀMAYN AL-ZAMAKHSHARĪ WA AL-NASAFĪ: DIRĀSAH MUQĀRANAH

(السيرة العلمية للإمامين الزّمخشريّ والنّسفيّ: دراسة مقارنة)

Syed Mohammad Hilmi Syed Abdul Rahman & ****Mohd Khairul Naim Che Nordin

****Akademi Pengajian Islam. Universiti Malaya. Kuala Lumpur. Malaysia.

*Email: smhilmi@um.edu.my

Khulasah

Artikel ini membincangkan dua personaliti penting yang memberi kesan dalam bidang akidah. Kedua-duanya iaitu al-Zamakhsharī dan al-Nasafī mempunyai aliran pemikiran tersendiri dan telah meninggalkan karya-karya agung dalam beberapa disiplin ilmu. Imam al-Zamakhsharī yang mempunyai pengetahuan luas adalah seorang pemuka dalam ilmu Balaghah dan Nahu, juga salah seorang pimpinan Muktazilah. Beliau telah menggunakan ilmu bahasa Arab bagi mempertahankan akidah Muktazilah dan mengajak orang lain berpegang dengan akidah tersebut. Imam al-Nasafī yang bermazhab Hanafi pula adalah salah seorang ulama besar dalam bidang Uṣūl al-Fiqh, al-Fiqh, bahasa Arab dan Tafsir. Oleh itulah beliau berusaha untuk memelihara aliran sunni. Kedua-dua imam ini terkenal dengan sifat zuhud, soleh dan bertakwa di samping dikenali sebagai ulama besar. Artikel ini mendedahkan beberapa aspek penting berkaitan kedua-dua imam tersebut dengan membuat perbandingan berkaitan personaliti dan pemikiran mereka. Artikel ini menggunakan metode kajian deskriptif dan perbandingan bagi mengetahui aspek persamaan dan perbezaan antara dua imam tersebut dengan menumpukan terhadap persekitaran politik, sosial dan

pemikiran yang juga memberi pengaruh terhadap pemikiran mereka.

Kata kunci: Al-Zamakhsharī, al-Nasafī, akidah.

Abstract

This article discusses two important personalities in the discipline of `Aqidah, namely al-Zamakhsharī and al-Nasafī. They had their own schools of thought and had left great works in several disciplines. Imam al-Zamakhsharī was a leading scholar in Balāghah and Naḥw. He had applied his expertise in Arabic language to defend Mu`tazila and invited others to practice it. Imam al-Nasafī from Ḥanafiṭe school of thought was one of the great scholars of Uṣūl al-Fiqh, al-Fiqh, Arabic language and Tafsīr. And for that reason he defended Sunnite school of thought. Both imams known for their asceticism, righteousness and piety. This article reveals several important aspects related to the two imams by comparing their personality and thought. This article employs the descriptive and comparative research method to determine the similarities and differences between the two imams focusing on political, social and intellectual environment that influenced their thought.

Keywords: Al-Zamakhsharī, al-Nasafī, `aqidah.

المقدمة

ترجمة موجزة للإمام الزّمخشري

هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر، ويكنّى أبا القاسم، ويلقّب بـ"جار الله" لمجاورته مكة المكرمة زماناً، فصار علماً له[١]، كما يلقّب بلقب آخر

[١] ابن خَلِّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط ١ (دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م)، ٥/١٦٨-١٦٩.

هو "فخر خوارزم[٢]"، وقد حظي به لمكانته العلمية والأدبية. ولد الإمام الزّمخشريّ بقرية زَمَخْشَر[٣]، من قرى خوارَزْم، في شهر رجب عام ٤٦٧هـ[٤]، وفيها نشأ وإليها ينسب، كما ينسب إلى خوارزم، وتوفّي في جُرْجانيّة[٥]، بخوارزم، بعد رجوعه من مكة، ليلة عرفة، سنة (٥٣٨)هـ[٦]. يعدّ الزّمخشريّ موسوعة في العلم، إماماً في البلاغة العربية، وقد شهد له بذلك عدد من العلماء، حيث يقول ياقوت الحموي: "كان إماماً في التفسير والنحو واللغة، والأدب واسع العلم كبير الفضل، متفنّناً في علوم شتى"[٧]. وذكره

---

[٢] أوّله بين الضمّة والفتحة، والألف مسترقة مختلسة، ليست بألف صحيحة، هكذا يتلفظون به، وهو اسم ناحية كبيرة عظيمة قصبتها الجرجانية. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (دار الجيل، ط١، بيروت، ١٤١٢هـ)، ٤٨٧/١. وخوارزم اسم قديم لمدينة خيوة، كانت تابعة لإقليم خراسان الكبرى، وتقع اليوم في غرب أوزبكستان. انظر: http://ar.wikipedia.org/wiki/خيو-2-8-2012.

[٣] بفتح الزاي والميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الشين المعجمة. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق، (١٧٣/٥).

[٤] الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، ط ١ (دار الغرب الإسلامي،٢٠٠٣ م)، ٦٩٧/١١.

[٥] بضمّ الجيم الأولى، وفتح الثانية، وسكون الراء بينهما، وبعد الألف نون مكسورة، وبعدها ياء مثنّاة من تحتها مفتوحة مشدّدة، ثم هاء ساكنة، وهي قضبة خوارزم. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق، ١٧٤/٥.

[٦] انظر: مصدر سابق.

[٧] ياقوت الحموي، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ط ١(دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م)، ٢٦٨٧/٦-٢٦٨٨.

القفطي في كتابه قائلاً: "كان الزّمخشريّ أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه، وأكثرهم أنساً واطلاعاً على كتبها، وبه ختم فضلاؤهم[٨]".

صنّف الزّمخشريّ الكثير من التصانيف المفيدة، في فنون الآداب، واللغة، والترجمة، والتفسير، والحديث، والفقه. ويعتبر "الكشاف" من أهم تصانيفه، وقد ألفه كما ذكر هو في مقدمته بعد أن دفعه إلى ذلك علماء المعتزلة، وألحّوا عليه، فجاء تفسيره مختصراً موجزاً أظهر فيه الجانب البلاغي واللغوي في القرآن الكريم وجمال نظم الآيات، مبيناً مواطن الإعجاز البلاغي والبديعي في توضيح المعاني لما للزمخشري من باع طويلٍ في فهم اللغة، والإلمام بالشعر والنحو، وفي علوم شتى، مع أن غرضه الأول كان المجيء بتفسيرٍ يكشف عن غوامض التنزيل وحقائق عيون الأقاويل في وجوه التأويل تماماً كما أراد حين اختار عنوان كتابه، فجاء تفسيره مثالاً واضحاً في جودة المعاني، واختيار التراكيب والبيان والإعراب، كشف فيه للجميع سرّ بلاغة القرآن، وأبَان وجوه إعجازه مع أنه سخر كل هذا خدمة لمذهبه الاعتزالي. وقد بان هذا جلياً واضحاً عندما أكثر فيه من الغوائل، والاعتزالات الخفيّة والظاهرة، وليس أدل على ذلك من أن الكثيرين قد وضعوا الحواشي على تفسيره.

[٨] القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة (المكتبة العنصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ)، ٣/٢٧٠.

عصر الإمام الزّمخشريّ

الحالة السياسية

عاش الإمام جار الله الزّمخشريّ ما بين الثلث الأخير من القرن الخامس، والثلث الأول من القرن السادس الهجريّن، حيث كانت تلك الفترة فترة ضعف وفتور للخلافة العباسية التي أنهكتها الصراعات فتعاقب على الحكم في هذه الفترة خمسة من الخلفاء منذ عام (٤٦٧ هـ – ٥٥٥هـ)، وهم على التوالي: المقتدي بالله: عبد الله بن محمد بن القائم ٤٦٧ – ٤٨٧ هـ) المستظهر بالله: أحمد بن المقتدي (٤٨٧ – ٥١٢هـ)، المسترشد بالله: الفضل بن المستظهر (٥١٢ – ٥٢٩هـ)، الراشد بالله: المنصور بن المسترشد (٥٢٩ – ٥٢٩هـ)، المقتفي بالله: محمد بن المستظهر (٥٢٩ –٥٥٥هـ).

ونتيجة لذلك الوضع ظهرت دويلات انفصلت عن الخلافة، وحاولت خلع ربقة ولائها، ففي خوارزم مسقط رأس الإمام نشأت الدولة الخوارزمية حيث امتد حكمها من خراسان إلى ما وراء النهر، وقد عمّرت هذه الدولة ما يقرب من مائة وستين سنة، من سنة ٤٧٠ – ٦٢٨هـ، فعاصر الزّمخشريّ أسرة أنوشتكين التي حكمتها، وقد كان بين الزّمخشريّ والأمير محمد بن أنوشتكين علاقة وطيدة حيث مدحه الزّمخشريّ بقصيدة

مطلعها: أيُّ الملوكِ تلاقتْ في مجالسهِ ** غرائبُ العلمِ والآدابِ والحِكَمُ؟[٩،١٠]

وظهرت دولة ثانية هي الدولة السلجوقيّة التي أسّسها ركن الدين طغرلبك (٤٢٩ -٥٢٢هـ)، حيث أطاح بالدولة البويهيّة، فعاصره الزّمخشريّ، كما عاصر غيره، منهم: غياث الدين، أبو شجاع محمد بن أبي الفتح ملك شاه (٤٩٨ - ٥١١هـ) الذي اتصل به الزّمخشريّ وأثنى عليه[١١].

وفي ظل هذه الأحوال السياسية المتردية، قام الصليبيون بشنّ الغارات على ديار الإسلام؛ محاولين النيل من أسسه وتقويض دعائمه، فكانت أولى حملاتهم على الشام سنة ٤٩١هـ، حيث سقطت مدينة "القدس" في أيديهم سنة ٤٩٢هـ.

الحالة الاجتماعية

كان المجتمع في عصر الزّمخشريّ متباين الأهواء نتيجة دخول شعوب ذات عادات وتقاليد مختلفة في الإسلام. فأمسى المجتمع يحتوي الكثير من الفرق

---

[٩] وأيّ ملكٍ اجتمعت في حضرته مستجدّات العلم، وفنون الأدب، وبدائع الحكم؟ الزمخشري، ديوان جار الله الزمخشري، شرح: فاطمة يوسف الخيمي، ط ١ (دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨م)، ٥٢١.

[١٠] انظر: الزمخشري لغوياً ومفسراً، مرتضى آية الله زادة (دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٧م)، ٢٤-٢٥.

[١١] انظر: مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن، ط ٣ (دار المعارف، القاهرة، د. ت.، ٣٥).

والملل والأهواء والنحل، والكل له طرائق وفنون تعبر عن فكره وتعكس صورة حياته، ونتيجة لذلك كثرت المسائل الكلامية والمناظرات الجدليّة التي أدّت إلى الفتن والاضطرابات، وبالرغم من ذلك وجد الدعاة المصلحون الذين حاولوا جاهدين فضّ النزاعات بين الأهواء المختلفة والعودة بهم إلى جادة الصواب مبددين الشكوك والأوهام التي اعترتهم، ودعوتهم إلى التمسك بالدين القويم، وترك البدع التي يثيرها أرباب الملل والنحل المتباينة.

أما عن "خوارزم" – بلد الزّمخشريّ – فقد كانت بمعزل عن تلك الفتن، ومع أنها تعرضت للهجوم من بعض قبائل الترك إلا أن الله نصرهم في عامة الأوقات، ومنحهم الغلبة في كافة الوقعات[١٢]. وقد كانت الحالة الاقتصادية مضطربة، فعمَّ الجوع، وانتشر الفقر والبؤس مما حَدَا بالزّمخشريّ أن يبث شكواه من تلك الحالة قائلاً:

ويا ليتني مُرض صديقي ** عدوي وأني في فهاهة ومسخط باقلِ[١٣]

وقال أيضا:

[١٢] انظر: مصطفى الصاوي، منهج الزمخشري في تفسير القرآن، مصدر سابق، ٣٥.

[١٣] وليت صديقي يرضى علي، ويضيق عدوي، وأكون عيِيّا عياء باقلٍ الذي ضُرب بعجزه المثلُ. الزمخشري، ديوان جار الله الزمخشري، مصدر سابق.

وما حُقَّ مِثلي أن يكون ** وقد عظُمت عند الوزيرِ
مُضيَّقاً وسائلي[١٤]

الحالة العلمية والفكرية

ازدهرت الثقافة وزَهَا حال العلم في عصر الزّمخشريّ، فقد عاش في عصر الثقافات الفارسية، والهندية، واليونانية التي نقلت إلى العالم الإسلامي، وعلى الرغم من الحالة السياسية والاجتماعية التي ذكرت، فقد شحذت العقول وامتدّ الخيال لدى علماء أفاضل قاموا في عصر الزّمخشريّ بجهود كبيرة في الترجمة، والتصنيف، والتأليف، فقد صنفوا العديد من المعاجم الجامعة، فكان العصر عصر الموسوعات، والمكتبات، والمعاهد، والمدارس التي انتشرت في نواحي البلاد كالمدارس النظامية التي أنشأها الوزير (نظام الملك)[١٥].

[١٤] وما كان أمرا حكيما أن يكون حق مثلي منكرا، وقد رفع الوزير قدر رسائلي. مصدر سابق.

[١٥] نظام الملك (٤٠٨ – ٤٨٥ هـ): الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، الملقب بقوام الدين، نظام الملك وزير حازم عالي الهمة. أصله من نواحي طوس. تأدب بآداب العرب، وسمع الحديث الكثير، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان إلب أرسلان، فاستوزره، فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين. ومات إلب أرسلان فخلفه ولده ملك شاه، فصار الأمر كله لنظام الملك، وليس للسلطان إلا التخت والصيد. وأقام على هذا عشرين سنة، وكان من حسنات الدهر. قال ابن عقيل: كانت أيامه دولة أهل العلم. اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند، ودفن في أصبهان. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي، الأعلام، ط ١٥، (دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ٢٠٢/٢.

وكان أهل "خوارزم" مولعين بعلوم الشريعة واللغة، حيث بلغوا فيها شأواً ومنزلة رفيعة، وقد شهدت بيئة الزّمخشريّ كثرة من العلماء والمؤلفين الذين توافدوا إلى "خوارزم" دون غيرها لإقبال أهلها على الإسلام بحب وشغف، وقد نشط هؤلاء العلماء في تعلم اللغة العربية، والعلوم الشرعية واللغوية، وكان نشاطهم العلمي والأدبي بسبب غيرتهم على الإسلام، والحرص على مبادئه وتعاليمه[١٦].

ومن ناحية ثانية كان الحكام يشجّعون العلماء ويحتضنون العلم، وعلى رأسهم وزير الدولة "نظام الملك" الذي كان يحب العلم والعلماء، ويجالسهم، ويقدمهم على غيرهم. وقد تمخض عصر الزّمخشريّ عن أئمة كبار كان لهم الأثر الكبير في إثراء الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، منهم:

ابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب، (ت ٥٤٢ هـ) في التفسير، والشاطبي، القاسم بن فيره، (ت ٥٩٠ هـ) في القراءات وعلوم القرآن، والبغوي الفراء، الحسين بن مسعود، (ت ٥١٦ هـ) في الحديث، والشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، (ت ٥٤٨ هـ) في الملل والنحل والفلسفة وعلم الكلام، والسمرقندي، أبو بكر علاء الدين محمد بن أحمد، (ت ٥٥٢ هـ) في الفقه وأصوله، والقاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى، اليحصبي، (ت ٥٤١ هـ) في مذهب المالكية، وإمام

[١٦] انظر: الزمخشري، محمود بن أحمد، رؤوس المسائل الخلافيّة بين الحنفيّة والشافعيّة، دراسة وتحقيق: عبد الله نذير أحمد، ط٢، (دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٧م)، ١٩-٢٠.

الحرمين، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، (ت ٤٨٧ هـ) في مذهب الشافعية، وابن البناء، الحسن بن أحمد بن عبد، البغدادي، (ت ٤٧١ هـ) في مذهب الحنابلة، والجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، (ت ٤٧١ هـ) في علوم اللغة، والحريري، القاسم بن علي، (ت ٥١٦ هـ) في الشعر والأدب، وابن عساكر، علي بن الحسن، (ت ٥٧١ هـ) في التاريخ والجغرافيا، ووجد من كان موسوعة كابن الجوزي، (ت ٥٩٧ هـ). وهكذا امتلأ عصر الزّمخشريّ بأساطين العلم وأئمته. وكان النصيب الأكبر من أولئك الأعلام لـ"خوارزم"، وقد ذكر الثعالبي في يتيمته نبذاً من أدبهم وأشعارهم[١٧].

وكما أسلفت فقد شاعت في عصر الزّمخشريّ مجالس المناظرات والجدل، ووجد من يساعد أصحابها ويدعو إليها من الخلفاء والوزراء في حين أدى ذلك التشجيع إلى ظهور التعصب المذهبي والتحيز الطائفي.

[١٧] الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق د. مفيد محمد قمحية، ط. ١ (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م)، ١٩٤/٤- ٢٥٤.

ترجمة الإمام النّسفيّ وعصره

ترجمة موجزة للإمام النّسفيّ

هو عبد الله بن أحمد بن محمود، ويكنى بـ"أبي البركات"، ويلقب بحافظ الدين، من أهل إيذج (من كور أصبهان) ووفاته فيها، وينسب إلى نَسَف،[١٨] بأوزبكستان.

كان – رحمه الله — عالمِا، زاهدًا، مفسرًا، أثنى عليه العلماء ثناءً جميلاً، فقد ذكره صاحب كتاب "التفسير والمفسرون" فقال: "أحد الزهاد المتأخرين والأئمة المعتبرين، كان إماماً كاملاً، عديم النظير في زمانه، رأساً في الفقه والأصول، بارعاً في الحديث ومعانيه، بصيرًا بكتاب الله – تعالى –، صاحب التصانيف المفيدة المعتبرة في الفقه والأصول، وغيرهما"[١٩]، وكما كان ورعًا بارعًا في الفقه الحنفي، حجة في علم القراءات، صاحب تفسير معروف يسمى "تفسير النّسفيّ".

---

[١٨] انظر: الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ٦٧/٤. النسفيّون كانوا أكثر من واحد، وقد نسبوا جميعاً إلى نَسَف، منهم: ميمون بن محمّد بن مكحول النسفي (٤١٨ – ٥٠٨ هـ)، الذي يكنى بـ"أبي المعين"، ومن أشهر مؤلفاته: تبصرة الأدلة، وبحر الكلام، والتمهيد وغيرها. انظر: مصدر سابق، ٣٤١/٧. وتلميذه الإمام نجم الدين أبو حفص النسفي (٤٦١ – ٥٣٧ هـ)، ومن أشهر مؤلفاته: متن العقائد النسفية. انظر: مصدر سابق، ٥٩/٥–٦٠.

[١٩] انظر: الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون، ط٧ (مكتبه وهبه، ٢٠٠٠م)، ٢١٦/١.

وتفسيره هذا من أهم المراجع حيث سأبنى عليه مقارنتي بينه وبين الإمام الزّمخشريّ في تفسيره "الكشاف". فالإمام النّسفيّ كان حنفيّ المذهب، بارعاً في أصول الفقه، واللغة، جاء تفسيره مرآة تُرى فيها عقيدة أهل السّنّة والجماعة، والإمام كذلك ماتريدي العقيدة، اختصر من الكشاف والبيضاوي كتابه: "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" خلافاً لما جاء به الزّمخشريّ لينفي نزعة الزّمخشريّ الاعتزالية، فجاء كتابه تفسيراً بالرأي السني المحمود، حيث كان وسطاً في التأويلات، جامعاً لوجوه الإعراب، والقراءات، التي أبدع فيها، مشتملاً كتابه على الكثير من البديع واللمسات البيانية والإشارات الجميلة الحسنة مرشحاً ومختاراً لأقاويل أهل السّنّة والجماعة. وقد خلا كتابه من الأباطيل وأمور البدع والضلالة، فليس كتابه بالطويل المملّ ولا بالقصير المخلّ.

عصر الإمام النّسفيّ

الحالة السياسية

في فترة مليئة بالحروب الخارجية، والاضطرابات الداخلية، والصراعات في العالم الإسلامي، عاش الإمام أبو البركات النّسفيّ، فقد عاصر اجتياح التتار لبلاد المسلمين حيث زحفت جيوش التتار بقيادة جنكيز خان قاصدة العالم الإسلامي، فعاثت في أراضيه فسادًا لا مثيل له من تخريب وسفك دماء.

وفي وقت كان فيه العالم الإسلامي مقسَّماً إلى دويلات أنهكتها الفتن والاضطرابات، أقبل الصليبيّون غازين مصر والشام، فاستولوا على كثير من الإمارات الإسلامية التي كانت تحت سلطان الأيوبيّين[٢٠].

واستمرت الحروب بين الصليبيّين والأيوبيّين طوال مدة حكم الدولة الأيوبيّة، ونتيجة هذه الحروب أصبحت بلاد المسلمين في حالة فوضى، وعدم استقرار، كما سقطت في يد المغول بعض الدول الإسلامية كبخارى، وسمرقند، وبلخ، وتبريز عاصمة أذربيجان، ثم اكتحسوا فارس وخراسان، وأعملوا السيف، وسفكوا الدماء، وهتكوا الأعراض في كل هذه البلدان، ثم واصلوا الزحف إلى جنوب آسيا، وجنوب شرق أوروبا، وألحقوا بأهلها الويلات؛ فسلبوا، وهتكوا، ودمروا كل ما وقع تحت أيديهم. ففي الشرق وفي الغرب كان حال المسلمين يزداد سوءاً، فالدول الإسلامية جميعها كانت على عداءٍ فيما بينها، لا يربطها رابط، والخلافة العباسية كانت اسمية فقط، لا نفوذ لها ولا سلطان على من جاور العراق وخوزستان، فلم تعد قادرة على بسط هيمنتها؛ لا على الأقاليم القريبة ولا على البعيدة، وليس الغرب أحسن حالاً من الشرق، فقد سيطر الإسبان على بلاد المسلمين، ولم يبق للمسلمين في الأندلس سوى غرناطة حيث كثرت في بلاد الأندلس الفرق والطوائف الدينية التي احتدم بينها الصراع عنيفاً، مما كان له الأثر الكبير في حلول الفتن وتلاحق المحن.

---

[٢٠] انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط ١ (دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م)، ١٣/٢٨٧-٢٨٩.

وفي سنة ٦٥٦ هـ استطاع المغول دخول عاصمة الخلافة العباسية، فحلّ الدمار بأهل بغداد عندما سقطت، وانتهى حكم الدولة العباسية. وفي سنة ٦٥٧هـ زحف المغول إلى الشام وسيطروا على معظمها، ومارسوا فيها سياسة القمع والقتل.

ولما أن وصلوا بزحفهم إلى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ تصدّى لهم المماليك بقيادة بيبرس أيام سلطنة قطز، فأوقفوا هذا المد التتري الذي طرد من بلاد الشام، وما لبث المغول حتى عاودوا الكرة على بلاد الشام، وفي النهاية استطاع المسلمون ردعهم والانتصار عليهم[٢١].

فكانت هذه الفترة فترة الحروب الطاحنة والاضطرابات العائمة من أصعب الفترات التي مرت بالإسلام والمسلمين لكثرة الصراعات والنكبات التي حلت بالعالم الإسلامي، ففي ظل هذه الحوادث الجسام عاش الإمام أبو البركات النّسفيّ.

الحالة الاجتماعية

ليست الحالة الاجتماعية في أي مجتمع سوى امتداد للحالة السياسية التي يعيشها، فنتيجة لما رأينا من حالة سياسة مضطربة في عهد الإمام النّسفيّ، فقد اضطربت الحالة الاجتماعية أيضا حين كثرت الأجناس المختلفة ووجدت الطبقات المتفاوتة خاصّة في مصر والشام، فكانت هناك طبقة الأمراء، وطبقة العلماء، وطبقة التجار، وطبقة رابعة هي طبقة أصحاب

[٢١] انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ١٣/٢٨٧-٢٨٩.

الحرف إلى جانب طبقة أخرى تشكل السواد الأعظم من المجتمع، وهي الطبقة التي لا تملك وظيفة ولا مهنة.

فالمجتمع طبقات متميزة لكل منها خصائصها ومظاهرها، وفي ظل هذا التدرج الطبقي بدا الفرق كبيرًا واضحاً بين فئات المجتمع المختلفة، فالأمراء كانوا أصحاب مال وسلطة، والعلماء لا أقل منهم شأناً بفضل الوظائف والرواتب الثابتة التي تعطى لهم من بيت مال المسلمين، وبفضل ما كان يغدق عليهم من أموال وهدايا من قبل السلاطين والأمراء المتنفذين، كذلك كان التجار يجنون الثروات الطائلة إلا أن الدولة كانت تثقل كاهلهم بالرسوم الباهظة، والغرامات، والمكوس. أما بالنسبة لأصحاب المهن والفلاحين فهم الطبقة الكادحة التي لا تكاد تحصل على قوت يومها[٢٢].

كان المجتمع طبقيا بكل ما في الجملة من معنًى، حتى إن مفاهيم الطبقات كانت متناقضة بسبب ما اشتمل عليه المجتمع من أجناس وقوميات مختلفة المذاهب والمعتقدات والعصبيات، فقد انتشرت الفرق الإسلامية ودبّ النزاع بينها، وكان الخلاف بين أهل السّنّة والشيعة أدّى إلى الصراع فيما بين الطائفتين، ومما لا شك فيه أن وجود العصبيّات التي تنتمي للدم هي التي أدت إلى ظهور الفتن والاضطرابات، فالمجتمع كان خليطًا من فرس، وأكراد، وأتراك، وغيرهم إلى جانب العرب الذين

[٢٢] انظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط١٤ (النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م)، ٤/٥٨٨-٥٨٩.

أهلكتهم أيضا العصبيّات، فكان النزاع بين الكوفي، والبصري، والشامي، والمصري، وبين الفقهاء أنفسهم، ناهيك عن الشيعة الرافضة التي أقامت الخلافة الفاطمية بدلاً من العباسية، ولو علمنا أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد، بل وجد بينهم الأصول المختلفة كما ذكرت الشواهد التاريخية لأدركنا السبب في انقسام الناس واختلاف التيارات[٢٣].

وعلى الرغم من هذا كله فقد كان هناك بعض التقدم في ميادين مختلفة، فقد كان هناك مراكز تجارية لبيع السلع العالمية في البلاد الإسلامية، وكان هناك اهتمام بالزراعة، والتشجيع على الصناعة، واستخراج المعادن، فازداد النشاط التجاري بين الشرق والغرب، إلا أن هذا كله كان مرتبطًا بالحالة السياسية السائدة، فهجوم التتار والحروب الدائمة بين الشرق والغرب والنزاعات المحلية لم تترك غير الغلاء والأوباء والاضطرابات التي مني بها هذا العصر وأثر سلبًا على حالته الاجتماعية.

الحالة العلمية والفكرية

اختلفت مظاهر الحياة العلمية والفكرية في القرن السابع الهجري عن غيره من القرون بسبب هجوم التتار على العالم الإسلامي وغزو الصليبيّين له مما زاد في محنة هذا العصر، فقد قتل التتار الكثير من العلماء، وأحرقوا الكتب على كافة أنواعها، وأشعلوا النار في المخطوطات والمؤلفات القيمة، وألقوا الكثير منها في الأنهار.

[٢٣] انظر: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ٤/٥٨٦-٥٨٩.

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت روح العلم والدين مرتفعة لدى العلماء أمثال العز بن عبد السلام، وابن تيمية، وابن الجوزي، وغيرهم من الأئمة والعلماء الأفاضل الذين نهضوا بالعلم وحثوا الناس على جهاد الأعداء بالسيف والقلم[٢٤].

وترك هؤلاء العلماء للأمة الإسلامية ثروة علمية ضخمة حيث ظهر هذا جلياً في نشاطهم الديني، وفي بحوثهم المختلفة في كافة العلوم والفنون، وفي ميادين الكتابة والتأليف، وفي إحياء شعائر الدين الصحيحة، والاهتمام بالمنشآت الدينية التي تخدم المجتمع، وتقديم الخدمات لطلبة العلم والمعرفة، والرغبة في زيادة التعلم والتعليم خاصة. وقد رأى الجميع الغزاة جاهدين في طمس هويتهم والقضاء على حضارتهم الإسلامية. فقد كان للسلاطين والأمراء أيضاً فضل في تشجيع النهضة العلمية والاهتمام بالعلم والعلماء رغم انشغالهم بالحروب مما ساعد في كتابة عدد من الشروح، والحواشي، والمختصرات.

فظهرت المؤلفات وانتشرت الكتب الكثيرة في هذا العصر وخاصة في علم الأصول والعقيدة للرد على التيارات المنحرفة، والمفاهيم المغلوطة، وسأذكر هنا بعضا من الكتب والمؤلفات العلمية والأدبية التي ظهرت في هذه الفترة فصححت الأفكار، وأحيت التراث، وزادت في العلم والمعرفة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

---

[٢٤] انظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي العهد المملوكي، ط٨ (المكتب الإسلامي، ٢٠٠٠م)، ١٦/٧-١٧.

- في العقيدة: كتاب الأربعين في أصول الدين، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للإمام فخر الدين الرازي، وأدلة الوحدانية في الردّ على النّصرانية، والأجوبة الفاخرة في الردّ على الأسئلة الفاجرة، للإمام القرافي.
- في مجال التفسير وعلوم القرآن: كتاب الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للعلامة البيضاوي، وهو كتاب له منزلته الخاصة عند أهل السّنّة والجماعة.
- في الحديث وعلومه: كتاب الإلمام للشيخ العلامة ابن دقيق العيد.
- في الفقه وعلوم الشريعة، وفي القراءات ظهرت الكتب الكثيرة كالمغني، والاستبصار، وحرز الأماني ووجه التهاني، والذخيرة، وكتاب الأسماء واللغات، والمهذب والوسيط، والوجيز، والتنبيه، والروضة، والكافي، وغير ذلك الكثير، وكان للإمام النّسفيّ يد طولى في ميدان القراءات.
- في المعاجم: معجم لسان العرب لابن منظور، وهو معجم مشهور لغزارة مادته وعظيم شأنه.
- كذلك ظهرت الكتب المتنوعة في مجال التاريخ، والعلوم الكونية، وفي الطب، والفلك، والأدب، والشعر[٢٥].

[٢٥] إبراهيم عبد الشافي إبراهيم، كتاب عمدة العقائد للإمام أبي البركات النسفي المتوفى سنة ٧١٠هـ، دراسة وتحقيق، رسالة الماجستير، كلية أصول الدين بالقاهرة، (قسم العقيدة والفلسفة، جامعة الأزهر، ١٩٨٧م)، ١٢.

والحقيقة أن الحركة العلمية والفكرية استمر عطاؤها ولم تخمد جذوتها بفضل الأعلام من العلماء الذين برزوا في هذه الفترة وهذا العصر رغم الاضطرابات والتحديّات، وكان لهم الفضل الأكبر في إثراء الحياة العلمية والفكرية، ولإمامنا أبي البركات النّسفيّ أثره في هذا العصر حيث صنف في التفسير، والعقيدة، والفقه، والأصول، والقراءات وترك لنا وعلماء عصره ذخائر لا زالت خالدة بما جاءت به من رؤية، ومعان، وبراهين إلى يومنا هذا.

المقارنة بين الإمامين الزّمخشريّ والنّسفيّ

عاش كل من الإمامين العالمين الزّمخشريّ والنّسفيّ في فترة مليئة بالحروب والاضطرابات، حيث كانت هذه الفترة من أصعب الفترات التي مرت على العالم الإسلامي، فالعصر عصر صراع مستمر، وزمن زامنٌ[٢٦]، عاشته البلاد الإسلامية وهي تجاهد التتار والصليبيّين رغم ما كانت عليه من ضعف ومعاناة من الفتن الداخلية .

لعل الناظر المدقق في حياة هذين العالمين يجد أنهما من العلماء البارزين، والنجباء اللامعين في زمانهم، بل هما الأشهر من الجميع ممن أثروا الحياة العلمية، والفكرية، وسموا بالفكر الإسلامي والحضارة الاسلامية حتى قيل في حقهما: إنهما من الذين تشد إليهما الرحال ويجتمع عليهما طلاب العلم ويُشار اليهما بالبنان، وتُضرب إليهما أكباد الإبل؛ ففي

[٢٦] وَيُقَال: زمنٌ زامنٌ: شَدِيد. مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى وآخرون)، المعجم الوسيط، (دار الدعوة، د.ط.، د.ت.)، ٤٠١.

الزّمخشريّ قيل: "كان أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه وأكثرهم أنساً واطلاعاً على كتبها وبه ختم فضلاؤهم"، وقال عنه ابن تغري بردي: " هو العلامة شيخ الإسلام حافظ الدين أحد العلماء الزهاد وصاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول والعربية وغير ذلك"، أما ابن همام فقد وصفه بـ"الشيخ الكبير، أستاذ العلماء حافظ الدين".

لقد أحيَى الإمام النّسفيّ تعاليم أهل السّنّة والجماعة منتصراً على أهل البدع والآراء المخالفة المغالية، وجاء تفسيره عنواناً على التفسير بالمأثور والرأي المحمود. قد عني عناية فائقة بالقراءات السبع، كما جاءت كتبه إثباتاً للتوحيد حين خاض في مسائل عدة منها مسائل الإلهيات رادًّا على الفرق المخالفة كالجهمية والقدرية، والمشبهة، والرافضة وغيرها. فالناسخ لتفسير الإمام النّسفيّ يصفه بكشاف حقائق أسرار التنزيل مفتاح أسرار حقائق التأويل، واختيار الإمام النّسفيّ لمذهب أبي الحنيفة كان هادياً له في سيرته العلمية، فهو الفقيه الحنفي الذي ألف من الكتب ما أغني عن السؤال كمثل كتابه المستصفى، وكنز الدقائق، والكافي في شرح الوافي، فجاءت مؤلفاته ظاهراً فيها كما ظهرت العقيدة الماتريديّة والفقه الحنفي .

لقد ترك لنا الإمام الزّمخشريّ تراثاً هائلاً من التصانيف المفيدة والجيدة في جميع المجالات العلمية حتى قيل إن له نحو خمسين مؤلفاً في الفنون المتعددة، وترك لنا أيضاً الإمام النّسفيّ التصانيف العديدة المفيدة في الفقه والأصول والقرآن وغيرها، إلا أن الزّمخشريّ عرف عنه نزعته الاعتزالية،

والتعصب لمذهبه، وتسخير قدرته وعلمه للغة والنحو من أجل خدمة هذا المذهب والدعوة اليه وتأييده، ولا أحسب الإمام النّسفيّ إلا أنه كان مهتماً بنهجه السنّي حين ميز صحيح الأثر وما اتُّفق عليه عن غيره من الأحاديث غير مستشهدٍ بالأحاديث الضعيفة كما فعل الزّمخشريّ.

ومع أن كشاف الزّمخشريّ كان يخلو من الإطناب والحشو، فقد جاء تفسيره مبيّناً للوجوه الإعرابيّة للكلمة موضحاً الكلمات البلاغية التي أظهرت إعجاز القرآن، إلا أنه خالف النحاة في بعض الآراء بسبب تحيزه لمذهبه الاعتزالي.

لقد قيل عن الكشاف إنه تفسير بلاغي للقرآن لا كما جاء تفسير النّسفيّ وإن كان الأخير خير مثال للتفسير بالمأثور، والرأي المحمود، ومذهب السنية إلاّ أنه لم يغفل عن الإتيان بشواهد اللغة، والنحو، والجوانب البلاغية؛ من نكت، ومحسنات بديعية، من أجل التوضيح والاستشهاد.

لا شك أن كلاً من الإمامين كان راسخ القدم في فهم منهجه وآرائه الاعتقادية، فالإمام الزّمخشريّ كان واسع العلم والاطلاع رأساً في البلاغة، والنحو، له من النظم الجيد الحسن، فهو أحد الرؤوس المعتزلة ودعاتها الأقوياء، نتيجة عيشه في بيئة كانت تموج بالاعتزال وتعج بالمعتزلة حيث تأثر بشيخه "أبي مضر الضبي"[٢٧] تأثّراً كبيراً.

[٢٧] أبو مضر: محمود بن جرير الضبي، الأصفهاني، وكان يلقب بفريد عصره، وكان وحيد دهره في علم اللغة والنحو والطب، وقد درس عليه الزمخشري النحو والأدب، وكان أعظم

أما عن الإمام النّسفيّ فقد كان من كبار الأصوليين والفقهاء ومن علماء المذهب الحنفيّ عالماً باللغة، والأصول، والتفسير. امتازت مؤلفاته بجودة الاتقان، ودقة التعبير وشدة التركيز. تفرغ للعلم والدراسة والبحث منذ كان صغيراً حتى اشتهر علمه، وذاع صيته، وأصبحت مؤلفاته مراجع الباحثين والدارسين .

لقد شهد الكثير للإمامين بالزهد، والصلاح، والتقوى، وبأنهما من الشيوخ الكبار، والعلماء الأفذاذ، فالإمام النّسفيّ "حافظ الدين" كما قيل عنه أحد العلماء الزهاد، تصدّر للإفتاء والتدريس سنوات عدة فانتفع منه غالب علماء عصره، كما انتهت اليه رئاسة الحنفية، فهو الإمام الورع صاحب الخلق الحسن، والتواضع الزائد الجم، امتاز بفصاحة اللفظ، وطلاقة اللسان، أحب الفقراء وطلبة العلم، وأحسن إلى الجميع.

على عكس الإمام النّسفيّ كان الإمام الزّمخشريّ يخضع الآيات للتأويل لكي توافق القياس، رافضاً ما لم يتفق من القراءات مع مذهبه حتى المتواتر منها، رغم أن الغاية عند كليهما كانت من أجل تغليب الرأي وإثبات الحقيقة في المسائل الخلافية عند تفسير بعض الآيات.

بقي أن أقول: لكل من هذين العالمين الجليليين وجهته في الرؤية والنظر، وفي خدمة اتجاهاته العقدية، ولكل منها مكانته العلمية، وهما

أساتذته أثراً في نفسه، وعنه أخذ مذهب الاعتزال، وهو مدخل مذهب الاعتزال إلى "خوارزم" توفي سنة (٥٠٧) هـ. انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مصدر سابق، ٦/٢٦٨٥ ، وانظر: السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (المكتبة العصرية، لبنان، د.ط.)، د. ت. ٢/٢٧٦.

فريدا عصرَيهما، كما أننا لا نبخس قدرهما، ولا نأتي على إتمام الوفاء لهما وهما العَلمان من أعلام العلماء، مثل غيرهما ومثلهما كمثل البغاث مع الطير العتاق، كيف لا وهما من تركا لنا الكثير الكثير من المؤلفات والمصنفات والنتاج العلمي أشاد بمكانتهما العلماء، وأثنى عليهما البلغاء، وأطرتهما كتب التراجم.

المراجع

إبراهيم عبد الشافي إبراهيم. كتاب عمدة العقائد للإمام أبي البركات النسفي المتوفى سنة ٧١٠هـ، دراسة وتحقيق، رسالة الماجستير، كلية أصول الدين بالقاهرة، قسم العقيدة والفلسفة، جامعة الأزهر، ١٩٨٧م.

ابن خَلِّكان. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط ١، مجلد ٥. دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.

ابن عبد الحق. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. دار الجيل، ط١، مجلد ١، بيروت، ١٤١٢هـ.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط ١، مجلد ١٣. دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م.

الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق د. مفيد محمد قمحية، ط. ١، مجلد ٤. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط١٤، مجلد ٤. النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٦م.

الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، ط ١، مجلد ١١. دار الغرب الإسلامي،٢٠٠٣ م.

الذهبي، محمد حسين. التفسير والمفسرون، ط٧، مجلد ١. مكتبه وهبه، ٢٠٠٠م.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي. الأعلام، ط ١٥، مجلد ٢. دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

الزمخشري، محمود بن أحمد. لغوياً ومفسراً، مرتضى آية الله زادة. دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٧م.

الزمخشري، محمود بن أحمد. ديوان جار الله الزمخشري، شرح: فاطمة يوسف الخيمي، ط ١. دار صادر، بيروت، ٢٠٠٨م.

الزمخشري، محمود بن أحمد. رؤوس المسائل الخلافيّة بين الحنفيّة والشافعيّة، دراسة وتحقيق: عبد الله نذير أحمد، ط ٢. دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٧م.

السيوطي، جلال الدين. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية، لبنان، د.ط.، مجلد ٢، د. ت.

القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف. إنباه الرواة على أنباه النحاة. المكتبة العنصرية، بيروت، ط١، مجلد ٣، ١٤٢٤ هـ.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى وآخرون). المعجم الوسيط. دار الدعوة، د.ط.، د.ت.

محمود شاكر. التاريخ الإسلامي العهد المملوكي، ط٨، مجلد ٧. المكتب الإسلامي، ٢٠٠٠م.

مصطفى الصاوي الجويني. منهج الزمخشري في تفسير القرآن، ط ٣. دار المعارف، القاهرة، د. ت.

ياقوت الحموي. معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، ط ١، مجلد ٦. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

http://ar.wikipedia.org/wiki/خيوة2-8-2012